السيئة التي نشرها سليم افندي سركيس في كتابه سرّ مملكة . وقد تجاسر حتى قال فيها عن ارباب الاديان :

ما هم رجالُ الله فيكم بل همُ القوم الابالسْ
يعشون بين ظهورهم تحت الطيالس والقلانسْ

ومثلها شقيقتها البائيّة التي مطلعها :

تنبّهوا واستفيقوا أيها العربُ فقد طمى الخطبُ حتّى فاضتِ الرُّكبُ

وفي هذه القصائد والمنشورات مطاعن في الدين وتهييج الخواطر على السلطة الشرعيّة ما كان الشيخ في غنًى عنهُ صوناً لعرضهِ ولشرف اسمهِ

ونختم هذا الفصل بذكر آخر فرعٍ من الدوحة اليازجيّة من اولاد الشيخ ناصيف وهي السيّدة وردة ابنتهُ التي لا تزال حيّة فعسى ان يكون عبيرها عطرًا كاسمها لا يمتزج بأدجها شيء من الريح العصريّة الذفرة وقد نمت وردة اليازجي بين الادباء فورثت عنهم الادب ولها ديوان صغير دعتهُ بحديقة الورد افتتحتهُ بابيات وجّهتها الى وردة بنت المعلّم نقولا الترك اوّلها:

يا وردة الترك اني وردةُ العرب فينا قد وجدنا اقرب النسب

ولا نزيد على هذا التلميح لنقوم بوعدنا أنّا لا نتعرّض لذكر الاحياء (لهُ بقيّة)

فاجعة مسينة

للابوين اليسوعيّين يوحنّا روش ودوريثال

هو مثلٌ شائعٌ بين اللاتين انّ البلايا في الأعتاب كخمّات العقارب في الأذناب. كانت السّنة المنصرمة مع ما جرى في مطاويها من التقلّبات وطرأ من الملمّات تُعَدّ بالاجمال من الاعوام السعيدة التي رحم فيها المولى عبادهُ وخفّف عنهم وطأة نكباته. ونحن كذلك ننتظر ختام السنة لنقايس بالعام الجديد اذ انتشر في البلد خبر مشؤوم ما كدنا نصدّقهُ لولا انّ الاخبار تناصرت والانباء البرقيّة توالت تزيل كلّ ريب وتُشير بخراب مسينة والقرى المجاورة لها من جزيرة صقلية كما انّها اعلمت بدمار

مدينة راجيو الواقعة في ايطالية بازاء مسينة ومذ ذاك اليوم الى يومنا الحاضر تتابعت الاخبار وزادتنا ايضاحاً عن عظم المصاب ثم جاءت باثرها الجرائد تصف البلاء وصفاً تقشعرّ له الابدان وترتعد لهوله الفرائص. فانّ مدينة مسينة الشهيرة اضحت تلالاً من الردوم والانقاض فسقطت بيوتها وابنيتها وتقوّضت قصورها وسقطت كنيستها الكاتدرائيّة المعدودة من البنايات الهندسيّة الجميلة وذهبت منتدياتها العموميّة كالمدارس وثكنات الجيش والمستشفيات فهلك اهلها. وبعد ان كانت مسينة مدينة تجاريّة زاهرة العمران حافلةً بالسكّان يبلغ عدد اهلها ٢٠٠,٠٠٠ من النفوس لم يسلم منها الّا عشرون الف نفس. وليس الاحياء في حالة ارضى من الاموات فانّ الذعر قد استولى عليهم حتى انّ كثيرين بشعورهم. وكان غيرهم مجهودين منهوكين ذاقوا الموت الوانًا لما قاسوهُ من الاوجاع والاخطار. وكان بعضهم قد اخذ الجوع منهم كلّ مأخذ يطوفون بين اخربة المدينة ليستدوا رمقهم ويسدّوا جوعتهم وكانوا اذا وجدوا شيئًا من القوت انقضّوا عليه كالطيور الكاسرة وتضاربوا بالمدى والسكاكين لينتشلوهُ من ايدي رفقتهم

امّا راجيو او رئية كما دعاها قدماء العرب فانّها كادت تطمس معالمها وتدخل كلّها في خبر كان فانّ ما بقي من ابنيتها لا يتجاوز عدد البنان. وقد أصيبت ايضًا قرى متعدّدة ومزارع من ضواحيها في جهات كلابرية حيث كانت حدثت سنة ١٩٠٥ تلك الزلازل التي اقفرت البلاد وشتّتت شمل السكّان

امّا اسباب كلّ هذه الويلات فزلازل هائلة حدثت في صباح يوم الاثنين ٢٨ كانون الاوّل لم تدم الّا نصف دقيقة لكنّها قلبت تلك الانحاء ظهرًا لبطن لشدّة هزّاتها. فتداعت الابنية وسقطت ساحقةً تحتها كلّ نفسٍ من الأحياء. وكأنّ ذلك لم يكفِ ليخلع القلوب هلعاً فانّ البحر ارتفع من اعماقه فبلغت امواجهُ علوّ ثلاثين قدماً فانصبّ كالسيول الجارفة او بالحري كالطوفان العرمرميّ على مسينة فحوّلها الى قاع صفصف والى اكوام من الاخربة والاطلال. فلم تلبث جثث الموتى ان تطفر فوق المياه فتنبعث منها الرائحة الكريهة وكان بضع مئين نجوا في مطامير البلدة وسراديبها فعلت اصوات نحيبهم وعويلهم فكانت تتفتّت لها الاكباد

هذه لمحة وجيزة ووصف ضعيف لما جرى في مسينة وكان لهذه النكبات اصداء

من الحزن في قلوب كلّ من لم تمت فيهم شواعر الانسانيّة فتسارعت كلّ الامم والمحسنين الى ارسال المؤن والحسنات لاسعاف المنكوبين . ولا نظنّ انّ اهل الخير في بلادنا يضنّون بمالهم وللكاثوليك منهم أسوةٌ برئيس الاحبار الذي مع قلّة ذات يده تبرّع بمئة الف فرنك وامر الاساقفة في كلّ البلاد بان يجمعوا ما امكنهم من المال لينفق في سبيل البؤساء المساكين والله لا يضيع اجر المحسنين

أمّا ما تصير اليه مسينة وراجيو بعد هذا المصاب أفيعود الايطاليّون الى بنائهما كما نورا ام يجعلونهما في موقع آخر على مسافة من موقعهما السابق او يُعدَل عنهما تمامًا فالامر حتّى الآن في اسرار الغيب التي لا يعلمها الّا الله . أمّا نحن فقد تسوقنا هذه الأحداث الى أن نعرّف قرّاءنا بتلك الانحاء فتزيدهم معرفتها اعتبارًا لها وترحّمًا على اهلها فنقول :

ما مرّ علينا سوى اربعة اشهر مذ ركبنا البحر في مرسيلية قاصدين الشرق ففي غدوة اليوم الثاني قطعنا بوغاز اجاسيو بين قورسقة وسردينية ثمّ واجهنا ايطالية عن بعد فملنا الى الجنوب محاذين لرومة ثمّ لنابلي وبركانها ويزوف حتى اقتربنا في صباح اليوم الثالث من سواحل كلابرية وصقلية فدخلنا في خليج أدّى بنا بعد ساعة الى مضيق هو بوغاز مسينة فمرنا بين ايطالية وصقلية وتراءت لنا من الجانبين مشاهد فتّانة كانت تأخذ بمجامع القلب وتخلب بحسنها النظر فكنّا نرى راجيو من عن شمالنا مكتسية باثواب الجمال تزدهي بابنيتها الحديثة البنيان ويُشرف عليها من الزوارع والدساكر ما يصحّ فيه قول الشاعر :

لاحت تراها بين خضرة أيكها كالدرّ بين زبرجد مكنون

أمّا مسينة فكانت تتدفّ يمينًا وساكنها متراصّةٌ بينها الابنية الفخمة والمتنزهات العموميّة والآثار القديمة الراقية الى ايّام العرب والنرمند والاسبانيين لاسيّما كنيستها الكاتدرائيّة العجيبة الراقية الى القرن العاشر الغنيّة بآثارها الدينيّة من صور لمشاهير المصوّرين وفسيفساء واواني فاخرة من عمل حذّاق الصّنعة . وهيهات ان يكون احدٌ من ركّاب السفينة يفكّر في ما ستؤول اليه بعد ربع سنة كلّ هذه المفاخر اعني كثبانًا من الأنقاض والاخربة

ولو كنّا تروّينا واستفتينا التاريخ بل لو اعتبرنا فقط ما كان يكتنفنا من المظاهر

لعرفنا انّ تلك الجهات عرضةٌ لآفات الدهر . فانّ راجيو الايطاليـة كانت خربت غير مرّة في توالي الاجيـال وخصوصاً سنة ١٧٨٣ فدُمّرت اوحى دمار . وكنّا نرى مشارف كلابرية حيث تعدّدت الويلات في كرّ الدهور بل قريباً من عهدنا سنة ١٩٠٥ اذ تشتّت شمل السكّان بعد ان اتلفت الزلازل كثيراً من القرى . امّا صقلّية فانّ بركانها اتنا كان منتصباً في اقاصي أفقنا نعاين في قمّتهِ اكليلاً من الدخان المنبعث من البركان . بل كان امامنا دليل أقرب على فعـل كوارث الحدثان ألا وهو البوغاز الذي كنّا فيهِ جارين تتقلّنا في وسطهِ اجنحة البُخار . فانّ علم طبقات الارض قد اثبت اليوم بالحجج القاطعة انّ صقلّية لم تكن سابقاً جزيرةً وانّما كانت شبه جزيرة ملتصقة بايطالية فدهمتها الزلازل وشقّت بينهـا وحصل ذلك البرزخ الفاصل اليوم بين البلدين. وقد جاء الزلزال الجديد كوقع الحافر على الحافر او بالحري كثالثة الاثافيّ او الطامّة العظمى

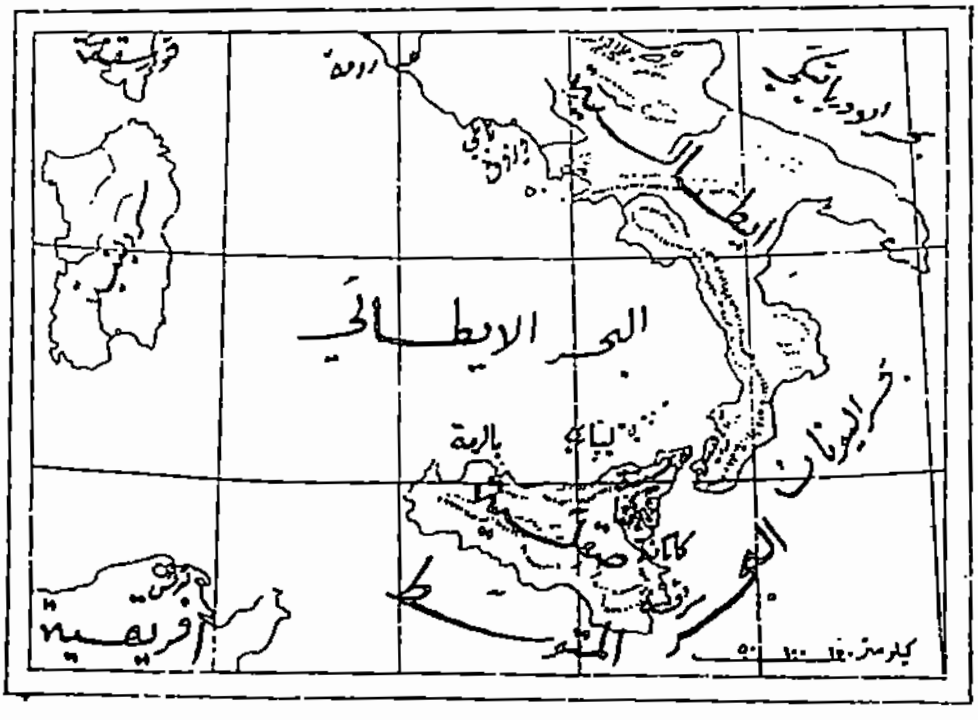

خارطة صقلّية و بوغاز مسينة

ان سألت عن تاريخ مسينة المنطرحة اليوم في قبرها المسجّاة في اكفانها قلنا انّ تاريخها يمزج بتاريخ صقلّية وكان مشيّدوها قرصان البحر من اليونان فسكنوها وبقيت ولاية اليونان عليها وعلى صقلّية حتى خلفهم في ملكها القرطجنيون ثمّ فتحها الرومان ثم انتزعتها من ايديهم قبائل الوندالة والقوط. وفي ايّام يُستنيان الملك استولى عليها البوزنطيّون الى عهد المأمون الخليفة العبّاسيّ ففتحها العرب وصار امرها الى سلالة منهم عُرفوا ببني الاغلب ثم انتقلت الى دولة الفاطميين. ولمّا كان القرن الحادي عشر زحف النرمنديون على صقلّية وملكوها نحو مئتي سنة فصارت الى عهدة ملوك اراغونة حتى تولّى عليها ملوك بوربون. وكان آخر ما طرأ عليها انّها صارت الى ملوك نابولي فخرجت من حكمهم سنة ١٨٦١ وضُمّت الى ايطالية

وكانت مسينة في كلّ هذه الاطوار المختلفة تنال حظّها من ترقّي البلاد او تقهقرها. وكانت في الغالب هي المدينة الثانية لصقلّية بعد بالرمة وكان موقعها عند مضيق صقلّية يزيدها شأنًا فتحفل بالتجار المتقاطرين اليها. امّا تربة مسينة فكثيرة الخصب وافرة الغلّات كمعظم جزيرة صقلّية وقد وصف مسينة الرحّالة ابن جُبَير سنة ٥٧٨ (١١٨٣ م) فقال:

هذه المدينة موسم تجّار الكفّار. ومقصد جواري البحر من جميع الاقطار. كثيرة الارفاق برخاء الاسعار... اسواقها نافقة حفيلة. وارزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلة. لا تزال بها ليالك وغاراتك في امان. وان كنت غريب الوجه واليد واللسان. ممتدّة الى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها والبحر يعترض امامها في الجهة الجنوبية منها. ومرساها اعجب مراسي البلاد البحريّة لانّ المراكب الكبار تدنو فيه من البرّ حتى تكاد تمسّه... وذلك لانفراط عمق البحر فيها وهو زقاق معترض بينها وبين الارض الكبيرة بمقدار ثلاثة اميال ويقابلها منه بلدة تُعرَف بِرَيّة وهي عمالة كبيرة. وهذه المدينة مسينة رأس جزيرة صقلّية وهي كثيرة المدن والمعاثر والضياع وقسمتها يطول. وطول هذه الجزيرة صقلّية سبعة ايّام وعرضها مسيرة خمسة ايّام وبها جبل البُركان المذكور وهو يأتزر بالسحب لانفراط سموّه ويتمّ بالثلج شتاء وصيفًا داغمًا. وخصب هذه الجزيرة اكثر من ان يوصف وكفى بانّها ابنة الاندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة بالارزاق على اختلافها مملوءة بانواع الفواكه واصنافها. لكنّها معمورة بعُبّدة الصلبان يعشون في مناكبها ويرتعون في اكنافها. والمسلمون معهم على املاكهم وضياعهم قد حسّنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم...

فناهيك بهذا الوصف تنويهًا بعظم شأن مسينة في الزمن القديم وقد كانت في

عهدنا اغنى ثروة وارفع قدراً . أما جبل البركان الذي اشار اليه ابن جبير فهو جبل اتنا الذي يبلغ ارتفاعهُ ٣٣١٣ ,٣ متراً وقد انفجرت فوهتهُ ثيفًا ومئة مرة فرمى بالحجارة ودفع من بطنهِ الحُمَم والموادّ الملتهبة التي بلغت في بعض الاحيان الى اماكن بعيدة على مسافة مئة كيلومتر

أما رَيَّة (او راجيو) التي ذكرها ابن جبير وسبق لنا ذكر خرابها فانها كانت من كبار المدن الساحليَّة الايطاليَّة يبلغ عدد اهلها نحو خمسين الفاً وفيها المدارس الكبيرة وهي كرسيّ لرئيس اساقفة . وكانت في حسن موقعها وخصبها تجاري مسينة وصيفتها الا انَّ معاطف جبالها صخرية جرداء في بعض الامكنة لا تأتي بثمر

وفي الخليج المجاور غربًا لمسينة وريَّة عدَّة جزائر تُدعى بجزائر ليباري تكثر فيها الزلازل وهناك بركان آخر لا يزال متقدًا والنيران تلتهب فوق هامتهِ وهو بركان ستروميولي يرى ركّاب البحر دخانهُ نهارًا ولهيب نارهِ ليلًا

أما اهل مسينة وراجيو فتارح في تقاطيع سحنتهم مميّزات كلّ العناصر والاجناس التي استوطنت تلك الانحاء. ولا غرو ان بينهم بقايا من اليونان والروم والعرب والنورمند والاسبانيين . وقد دخل بينهم في الاجيال المتأخرة عدد وافر من الارناؤوط من سكّان البانية وبينهم قوم يتكلّمون الى اليوم بلغتهم الاصليَّة . ولغة اهل مسينة وريَّة في أيامنا هي الايطاليَّة الّا انَّ اليونانيَّة بقيت شائعة بينهم الى القرون الوسطى بل صبرت على صروف الزمان في بعض الامكنة المنقطعة الى القرن السادس عشر . واسم مسينة مشتقّ من احدى المستعمرات اليونانيَّة التي حطَّت فيها عصا الترحال وكان لسيم مسَّانيين واصلهم من مسَّانية في بلاد اليونان

هذه بعض الافادات قدَّمناها لقرَّائنا كمجالةٍ وكان قسم كبير من المجلَّة قد تمَّ طبعهُ لمَّا بلغتنا اخبار الزلازل . وكنَّا اضفنا الى هذه الاسطر بعض الايضاحات في نواميس الزلازل وسيرها لولا انَّ حضرة الاب كولنجت سبقنا الى ذلك في كلامهِ عن فاجعة سان فرنسسكو فنحيل قرَّاءنا الى مقالتهِ المعنونة « البراكين والزلازل » (في المشرق ٩ : ٤٨٣ — ٤٩٣)